الامبراطورية الاشورية وعلاقتها بمملكتي يهوذا والسامرة.

د. عبد الوهاب كيدار

جامعة عمار ثليجي، الأغواط، الجزائر.

kidarsab@hotmail.com

تاريخ الإرسال: 25/ 10/ 2017 تاريخ القبول: 08/ 01/ 2019 تاريخ: النشر: 30/ 01/ 2019

الملخص:

يتحدث هذا المقال عن الاشوريين بدءا من تاريخهم القديم منذ الالف الثالثة قبل الميلاد الى غاية القرن السابع قبل الميلاد، حيث مرَّ التاريخ الاشوري بثلاث مراحل مهمة تتمثل اساساً في الامبراطورية الاشورية القديمة، ثم عهد الإمبراطورية الاشورية الوسطى، ثم الإمبراطورية الاشورية الحديثة التي تنقسم بدورها إلى الإمبراطورية الاشورية الحديثة الأولى ثم الثانية، وطيلة هذا التاريخ الطويل اصطدم الاشوريون بقوى الجوار خاصة العيلاميين والحيثيين والمصريين، من اجل السيطرة في بلاد الشام عامة وفينيقيا خاصة كمورد اقتصادي مهم، كما كان لهم السبق في التدخل في شؤون مملكتي بني إسرائيل يهوذا والسامرة، أين قضوا على هذه الأخيرة وهذا ما سأحاول ابرازه في هذا المقال.

الكلمات المفتاحية: الامبراطورية الآشورية، يهوذا، السامرة

***Abstract*:**

The Assyrian history brgins in the third millennium BC until the seventh century BC, when Assyrian history passed through three important stages: the Assyrian Empire, the Assyrian Empire, the Assyrian Empire, and the Assyrian Empire. The Assyrian first and then the second, and throughout this long history the Assyrians collided with the forces of the neighborhood, especially the Elamites, the Hittites and the Egyptians, for control in the Levant in general and Phoenician especially as an important economic resource, and they had the lead in intervening in the affairs of My kingdom belongs to the children of Israel Judah and Samaria, where they spent the last one and this is what I will try to highlight in this article

***key words* : *The Assyrian Empire, Judah, Samaria*،**

مقدمة:

كانت أقدم حركات الشعوب السامية في التاريخ نحو منطقة الهلال الخصيب خاصة بلاد ما بين النهرين؛ حيث شهدت المنطقة تتابعاً لهجراتهم إلى غاية تكوين وحدات سياسية واسعة وقوية، بداية من الاكاديين وصلولا إلى الكلدانيين، ومن ضمن هاته الاقوام نجد الاشوريين الذين لعبوا دوراً هاماً في تاريخ الشرق الأدنى القديم بصفة عامة، وتاريخ بلاد الرافدين بصفة خاصة وذلك منذ ظهورهم على مسرح الاحداث خلال الالف الثالثة قبل الميلاد إلى غاية سقوط إمبراطوريتهم في القرن السابع قبل الميلاد على يد الميديين والكلدانيين.

إن تاريخ الاشوريين الطويل والحافل بالاحداث السياسية والعسكرية خاصة كوَّنَ لهم علاقات عديدة مع جيرانهم خاصة العيلاميين والمصريين والكنعانيين، كما كان لهم الأثر البارز في سير احداث تاريخ فلسطين القديم، وقد ارتأيت أن اعالج في هذا المقال علاقة الاشوريين

بمملكتي بني إسرائيل يهوذا والسامرة، ما يستوجب طرح الاشكال الآتي: كيف كانت علاقة الاشوريين بمملكتي يهوذا والسامرة وما طبيعتها؟.

الأشوريون:

قبل الحديث عن تاريخ الاشوريين وجب الإشارة إلى أصلهم، فهم كغيرهم من الساميين الذين جاؤوا من الجزيرة العربية في مطلع الألف الثالثة قبل الميلاد[1]، ويرجع البعض بداية الظهور الأشوري بعد نهاية حضارة تل حسونة أي قبل الألف الثالثة قبل الميلاد؛ حيث تمثلت مآثرها في فخاريات تل حلف في أعالي الخابور[2]، وهناك من يرى أنه قبل وصولهم إلى شمال وادي الرافدين حلوا في موطن مؤقت بعد هجرة أجدادهم من الجزيرة وانتقلوا منه إلى البلاد التي صارت موطنا ثابتا، و الموطن المؤقت هو بابل، وهذا ما ورد في سفر التكوين: "10وَكَانَ ابْتِدَاءُ مَمْلَكَتِهِ بَابِلَ وَأَرَكَ وَأَكَّدَ وَكَلْنَةَ فِي أَرْضِ شِنْعَارَ. 11مِنْ تِلْكَ الأَرْضِ خَرَجَ أشور وَبَنَى نِينَوَى وَرَحُوبُوتَ عَيْرَ وَكَالَحَ"[3].

واستند أصحاب هذه الرأي إلى القول بأن اللغة الأشورية ما هي إلا لهجة من اللغة البابلية، غير أن الفروق بين اللغتين لا تدل على ذلك، ويذهب بعض الباحثين إلى أن الأشوريين موجة جاءت من بلاد الاموريين من الساميين الغربيين من سورية؛ حيث استوطن الأشوريون في شمال العراق في زمن لعله الأكادي أو فيما قبل ذلك؛ وأنهم اختلطوا مع الأقوام التي كانت موجودة قبلهم ولاسيما السوباريون[4] والأقوام المجاورة لهم، وقد عرف الأشوريون نسبة إلى عاصمتهم أشور والتي أخذت اسمها من اسم إلهها المحلي وهو إله الأشوريين القومي وكبير آلهتهم، وجاء اسم الأشوريين في المصادر الآرامية والعربية آتور[5]، وهناك من يذهب إلى القول: أن الاسم نسبة إلى أشور بن سام[6].

وذكر موطن الأشوريين في المصادر المسمارية بهيئة بلاد أشور (مات أشور)[7] وامتدت منطقة أشور في عصورها الأولى بين نهري الزاب الأكبر والأصغر إلى غاية نهر دجلة[8]، وهي موقع

استراتيجي هام يتحكم في الطرق التجارية الممتدة بين بلاد سومر وأكد من جهة وشمال أرض الجزيرة العربية من جهة أخرى، لذلك كانت أشور دائما محل أطماع الملوك الأقوياء الذين ظهروا في الجنوب أمثال "سرجون الاكادي"، "ونارام-سن" وملوك سلالة أور الثالثة(9).

عاش الأشوريون في تلك المنطقة منذ العصور التاريخية القديمة وتدرج فيها كيانهم السياسي والعمراني واشتقوا حضارتهم من الحضارة السومرية نتيجة معاصرتهم سلالة اور الثالثة، كما أن أشور كانت مقاطعة تابعة لهم(10)، فتعامل الأشوريون معهم ومع من تلاهم مثل الأكديين وانتفعوا منهم، وكونوا منذ القرن 21 ق.م أو قبله دولة عسكرية نتيجة صعوبة المنطقة التي قطنوها وما ترتب عنه من نقص لضمان حياة الشعب لهذا تحولت حياة الأشوريين إلى شعب مجند باحث عن مناطق أخصب(11).

أخذت أشور تتدرج في القوة مع حدوث بعض الفترات من الضعف وآل أمرها إلى أن أصبحت إمبراطورية قوية فرضت سلطانها على الشرق الأدنى(12)، وبما أن هذه الحقبة من تاريخ الأشوريين طويلة كثرت فيها الحوادث فقد قسمها العلماء إلى عهود مختلفة أهمها:

1.الإمبراطورية الأشورية القديمة (2105-1530 ق.م):

يبدأ عذا العهد من فجر التاريخ الأشوري حتى نهاية حكم سلالة بابل الأولى، وقد حكم أشور خلال هذه الفترة حوالي سبعة عشر ملكا وذلك حسبما ورد في القائمة التي عثر عليها في خور سباد(13)، ولم يكن للأشوريين كيان سياسي خلال الألف الثالثة قبل الميلاد، بل كانوا خاضعين للحضارة السومرية ودويلاتها ودانوا بعدها للحكم الأكادي، ثم خضعوا لحكم الجنوب في عهد سلالة أور الثالثة، وكان أول ملك أشوري هو بوزور الملقب بأشور الأول (2105-2092 ق.م) الذي عاصر العهد البابلي القديم، وعرفت أشور بداية استقلالها ونهوضها في زمن "ايلو شوما" (1962-1942 ق.م) الذي قام بحملة على بلاد بابل للسيطرة على الطرق التجارية الموصلة إلى عيلام والخليج العربي، كما كان معاصرا لمؤسس سلالة بابل الأولى الذي حكم بين (1894-

1881 ق.م)، وامتد نفوذها إلى الجنوب، واستطاعت أن تتقدم أكثر في زمن "شمشي ادد الأول" (1815-1782 ق.م) الذي احتل مدنا كثيرة في أواسط وادي الرافدين، وعلى الفرات كمدينة ماري؛ حيث عين ابنه حاكما ينوبه فيها، كما أقام علاقات ودية تجارية مع كركميش وقنطة في شمال سورية[14]، وفي أواخر حكمه ظهر الملك حمورابي الذي قضى على استقلال أشور؛ حيث خضعت له مدة عشرين سنة عاصر منها "شمشي ادد الأول" السنوات العشرة الأخيرة من حكمه، وما زاد من تقلص نفوذ الأشوريين ظهور الآراميين خلال القرن السابع عشر قبل الميلاد متمثلين في التواجد الحيثي[15].

2. الإمبراطورية الأشورية الوسطى (1530-911 ق.م):

شهدت بلاد أشور خلال عصرها الوسيط الذي دام أكثر من ستة قرون أحداثا هامة وتغيرات سياسية وعسكرية واجتماعية وحضارية فمن الضعف إلى القوة، ومن التدهور الاقتصادي إلى الانتعاش والرفاهية، ومن التبعية والاحتلال إلى السيادة، فبعد وفاة حمورابي خضعت بابل لحكم الكاشيين، وما إن استولوا عليها حتى استرجعت أشور استقلالها على يد "شمشي ادد الثاني" الذي أعاد بناء أشور، وواصل مد الحدود إلى غاية فينيقيا[16]، وقد اصطدم ملوك أشور بالقوى المجاورة لفترة طويلة من جانب الحيثيين والحوريين (الميتانيين)[17] غرب دجلة وما إن حلت سنة 1450 ق.م حتى دانت المنطقة كلها تقريبا للحكم الميتاني، الذي بدأ يضعف تدريجيا فيما بعد نتيجة ضربات الحيثيين خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد[18].

كذلك تواجد الكاشيين والقوات المصرية بشكل حاميات في المنطقة خصوصا بعد طرد الهكسوس نحو فلسطين، ودخلت مصر فيما بعد في صراع مع الحيثيين دام عشر سنوات نتيجة تضارب المصالح؛ حيث كانت مصر تسعى إلى السيطرة على الموارد والطرق التجارية في سوريا[19].

كما ظهر في هذه الفترة تحالف بين الأشوريين والحيثيين للإطاحة بالميتانيين؛ حيث عمل الملك الأشوري "ايريبا-حدد الأول" (1390- 1364 ق.م) على تحرير دولته من السلطة الحورية

واستطاع خليفته "أشور-اوباليط" (1363-1328 ق.م) بعد التخلص من النفوذ الأجنبي باستغلاله الانقسام الحاصل في البيت الميتاني؛ حيث انقسمت الدولة الميتانية إلى دولتين الأولى سيطرت على منطقة وان (فان) والثانية سيطرت على شمال بلاد الرافدين وأجزاء من سورية، وقتل "أشور-اوباليط" الملك "توشراتا" سنة 1330 ق.م كما قام بمصاهرة الملك الكاشي وتزوج من ابنته تجنبا للدخول في أي صراع[20]، كما عمل على إقامة حلف مع فرعون مصر امينوفيس الرابع لمواجهة أي عدوان أجنبي والمقصود هنا الحيثيين والكاشيين[21].

كان من بين خلفه "حدد-نيراري الأول" (1305-1274 ق.م) الذي بدأ بشن حرب ضد المملكة الكاشية وضمن ولاءها من جديد للأشوريين، وغزا المنطقة الممتدة من حران إلى كركميش على ضفاف نهر الفرات، ثم جاء من بعده "زالما-نصر الأول" (شلمنصر الأول) (1273-1243 ق.م) الذي يعتبر من أعظم ملوك أشور حيث قام بإخضاع اورارتو (أرمينيا) وحارب الحيثيين، كما خاض حربا ضد الكاشيين عندما انقلبوا على أشور وأسس عاصمة جديدة كالخ (نمرود)[22]، وخلفه ابنه "توكلتي-ننورتا الأول" (1243-1221 ق.م) وفي عهده بلغت الدولة الأشورية قمة مجدها السياسي والعسكري؛ حيث ضم بابل إلى التاج الأشوري، وصار يلقب نفسه ملك سومر وأكد[23] وشيد مدينة تحمل اسمه "كار-توكلتي ننورتا"[24] وغير العاصمة من كالخ إليها وفي آخر عهده قتل في قصره بهذه المدينة.

بعد وفاة هذا الملك حدث نزاع على العرش فضاعت بعض ممتلكات أشور الشرقية إلى أن اعتلى العرش الملك "تجلات-بلاصر الأول" (1115-1077 ق.م) الذي يعتبر حكمه بداية التوسع الحقيقي لأشور؛ حيث قام بعدة غزوات وصل خلالها إلى البحر الأسود ثم اتجه غربا نحو سواحل آسيا الصغرى وفينيقيا وأخضع بابل إلى سلطته، فادخل الرعب على الشعوب الصغيرة المستوطنة في كنعان وخاصة مملكة بني إسرائيل[25]، وبعد وفاته تقلص النفوذ الأشوري من جديد نتيجة ضعف خلفائه وظهور القبائل الآرامية التي بدأت تغزو الشرق الأدنى، وتؤسس لها دويلات في

الأقسام الشمالية من بلاد ما بين النهرين وفي جهات سوريا؛ حيث كادت تقضي على الكيان الأشوري(26)، ودام الصراع قرابة قرنين من الزمن حتى ظهور الملك "أشور دان الثاني" (933-911 ق.م)، لتظهر بعد ذلك الإمبراطورية الأشورية الحديثة.

3. الإمبراطورية الأشورية الحديثة:

والتي هي موضوع الدراسة نظرا للأحداث التي شهدتها هذه الإمبراطورية وخاصة الصراع مع مصر حول منطقة سوريا ودخول بني إسرائيل في النزاع وقد قسم المؤرخون الإمبراطورية الأشورية الحديثة إلى:

أ. الامبراطورية الأشورية الحديثة الأولى (911-745 ق.م):

بعد فترة الانتكاس التي شهدتها أشور تسلم زمام الحكم ملوكا بلغوا ذروة المجد بأشور نتيجة ما قاموا به من حروب فقد قضوا على الدويلات الآرامية في سورية كما اخضعوا بابل واحتلوا المناطق الجبلية في الشرق والشمال، وشيدوا الحصون لحماية الإمبراطورية وضمان سير القوافل التجارية وكان من بين هؤلاء الملوك "أدد-نيراري الثاني" (911-890 ق.م) في هذه الفترة بالضبط تناقصت الأخطار الخارجية على أشور فاهتم هذا الملك بالجيش الذي استطاع من خلاله إخضاع الأقاليم المجاورة ثم تحالف مع بابل وابتداء من حكم هذا الملك أرخ الأشوريون بالطريقة المعروفة بالليمو(27) وهذا من جملة الأسباب التي جعلت المؤرخين يؤرخون للفترة الجديدة بداية من حكم هذا الملك(28).

بعد وفاة هذا الملك خلفه ابنه "توكلتي-ننورتا" (890-884 ق.م)، سار على خطى والده؛ حيث وسع حدود الإمبراطورية وقاد حملة ضد المقاطعات الجنوبية التي سبق أن احتلها والده وألزم الآراميين باحترام الحدود الأشورية، كما قام بإعادة بناء سور مدينة أشور وتأمين الطرق التجارية والعسكرية، وتشييد القلاع والحصون، لكنه لم يعمر طويلا حتى يحقق كل أهدافه(29).

وخلفه على العرش "أشور-ناصر بال الثاني" (883-859 ق.م) الذي يعتبر من أهم الملوك رغم ما عرف عنه من قسوة ضد أعدائه، وصلت حروبه إلى الجبال الشرقية والشمالية، وهدم ما يقارب مائة وخمسين مدينة، وأدب القبائل الآرامية المتمردة في وادي الخابور الأسفل، كما شرع في احتلال سوريا وبلغ حتى ساحل البحر المتوسط واتجه إلى صور وصيدون وبيبلوس (جبيل)، وبذلك فتحت الطريق أمام الجيش الأشوري سنة 877 ق.م بقيادة هذا الملك فسار من كركميش إلى أنطاكية، وقام بعدة إصلاحات منها إدخال فرقة الخيالة إلى الجيش وقسم البلاد إلى عدة ولايات، كما قام بترميم المعابد في أشور ونينوى، وجدد بناء مدينة كالخ، ووضع لها سورا وأبراجا للمراقبة كما قام بشق قناة من الزاب الأعلى لري السهل المحيط بها اعتمادا على المنفيين، وبعد أن وطد أشور داخليا اتجه بحملة صوب كردستان في الشمال، واسكن مجموعات من الأسرى في بعض المدن جيء بهم من المناطق المحتلة وجعل كالخ (نمرود) عاصمة للحكم في عهده[30].

خلفه بعد وفاته "شلمنصر الثالث" (858-824 ق.م) تميز عهده بكثرة الحملات العسكرية فقد قضى مدة واحد وثلاثين سنة من حكمه في شن الحروب ووصلت جيوشه إلى مناطق جديدة لم تبلغها أشور من قبل في ارمينيا[31] وقلقيليا وفلسطين وفي وسط جبال طوروس وزاجروس وعلى سواحل الخليج العربي، وقد لقب بالأفعوان الأكبر، وقد دوّن "شلمنصر الثالث" اخباره في مسلة تعرف بالمسلة السوداء وهي الآن بالمتحف البريطاني[32].

لكن جيوش شلمنصر الثالث أخفقت في العديد من المرات مما قلل ربما من قيمة تلك الانتصارات وقد واصل الجيش توغله في أراضي اورارتو في وسط جبال أرمينيا فلم يستطع تحقيق نصر كامل، أما على الجبهة السورية فقد اتحد الحيثيون والاراميون لصد هجوم "شلمنصر الثالث" مما تطلب توجيه ثلاث حملات للقضاء على مملكة بيت-ادين واستولى على عاصمتها، وأطلق عليها فيما بعد اسم كار-شلمان-سارد (رصيف شلمنصر)، وفي عام 841 ق.م هاجمت قوات "شلمنصر الثالث" دمشق على اثر اغتيال ملكها "ادد-ادري" وخرب الحدائق والبساتين المحيطة بها، ليتوجه

بعد ذلك إلى صور وصيدا لأخذ الجزية وكذلك فعل مع مملكة إسرائيل لكنه تخلى عن سورية لأنه فشل في احتلالها، وفي نهاية عهد "شلمنصر الثالث" حدثت اضطرابات بأن ثار احد أبنائه ضده بمساندة 27 مدينة من بينها أشور ونينوى، كما استعان بالآراميين فعهد الملك الى ابنه "شمشي-ادد الخامس" (824-811 ق.م) مهمة اخماد نار الفتنة، وقد انتشرت الحروب الأهلية في المملكة واستمرت ست سنوات توفي خلالها "شلمنصر الثالث"، واخمد "شمشي-ادد الخامس" الفتنة بعدما فقدت أشور العديد من أراضيها، وتعزز حكم الملك بمصاهرة مع البيت البابلي من خلال زواج "شمشي-ادد الخامس" "بسميراميس" وتميز حكمه عموماً بالركود(33).

تولى العرش بعده "ادد-نيراري الثالث"(810-783 ق.م)، ولأنه كان صغيرا تولت سميراميس الوصاية عنه طوال ثلاث سنوات(34)، وهناك اختلاف حول مدة حكم هذه الملكة يقول حلمي محروس أنها حكمت مدة خمس سنوات(35)، إلى أن بلغ المَلِكُ السن التي تخول له استلام زمام الأمور، فهاجم سورية ودخل دمشق واستلم الجزية من ملكها "حدد الثالث" ،كما فرض الجزية على الحيثيين والفينيقيين وبني إسرائيل والميديين، وبعد وفاته آل الحكم إلى أربعة ملوك عرفت أشور خلال حكمهم حالة من التدهور، إلى أن تولى الحكم "تجلات-بلاصر الثالث" الذي أعاد مجد أشور(36).

ب. الإمبراطورية الأشورية الحديثة الثانية (745-609 ق.م):

عرفت العاصمة الأشورية كالخ ثورة أهلية ضد "أشور-نيراري الخامس" آخر ملوك الإمبراطورية الأولى فقُتِل الملك وتولى السلطة "تجلات-بلاصر الثالث" (745-727 ق.م) الذي كان يدرك جيدا مواطن الضعف في الإمبراطورية فقد أعاد تنظيم الجيش لزيادة قدرته القتالية وضم فرقة المرتزقة من مناطق خارج أشور، وأسس فرقة الحرس الملكي ليصبح الجيش نظاميا، وطور صناعة العربات والأسلحة الحربية(37)، كما حد من نفوذ الأمراء الكبار؛ حيث زاد عدد المقاطعات وقلل من حجمها، أما بالنسبة للمناطق التي احتلها الملك فقد عين عليها ولاة أشوريين

بدلا من الحكام المحليين، والتي تعذر دمجها في رقعة الإمبراطورية فقد ترك حكامها وعين عليها مشرف من طرف الدولة وكانت المهمة الأساسية لحكام المقاطعات تأمين تسليم دفعات دائمة من الجزية والضرائب، ولكي يمنع الملك حالات العصيان انتهج سياسة سابقيه وذلك بترحيل القبائل غير المرغوب فيها واستبدالهم بجماعات أخرى جلبت بالإكراه من مواطن أخرى وكان الهدف تجريدهم من الحس الوطني والتخلي عن الآلهة والتقاليد المحلية وفيما بين (742-741 ق.م) تم نقل حوالي عشرين ألف سوري من منطقة حماة إلى جبال زاجروس كما تم تهجير ثمانية عشر ألف أرامي من الضفة اليسرى لنهر دجلة إلى منطقة شمال سورية[38].

أما عن حملات "تجلات-بلاصر الثالث" فقد كانت أولاها استعادة أرمينيا وبعدها اتجه نحو جنوب العراق وأزاح عن بابل ضغط الاراميين[39]، واخضع مدن سومر وأكد لسيطرته، ثم اتجه نحو سورية وهاجم التحالف الحيثي الارامي وحاصر ارفاد التي استسلمت بعد حصار دام ثلاث سنوات، وفي سنة 734 ق.م اتجه "تجلات-بلاصر الثالث" إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط لوضع حد للتحالف بين أمراء صور وصيدا وعسقلون وغزة؛ حيث تمكن من دحر المتمردين وقتل أمير عسقلون، وهرب أمير غزة إلى مصر، وقام أمراء مؤاب ويهوذا بدفع الجزية لأشور، وفي نفس السنة وجه حملة نحو بابل بعد وفاة "نبوخذنصر الأول"، وفي سنة 732 ق.م طلب ملك يهوذا "آحاز" النجدة من الأشوريين ضد أعدائه من دمشق ومملكة إسرائيل فاحتل "تجلات-بلاصر الثالث" دمشق ونصب هوشع ملكا على السامرة ودفعت له جل القبائل الجزية[40]،

تولى العرش بعد "تجلات-بلاصر الثالث" "شلمنصر الخامس" (726-722 ق.م) والحدث الوحيد الذي ميز عهده هو عصيان مملكة إسرائيل، التي قام بمحاصرتها مدة ثلاث سنوات، وعاد بعدها إلى أشور بسبب الاضطرابات التي أدت إلى مقتله، وخلفه على العرش "سرجون الثاني" (721-705 ق.م)، الذي كان ضابطا في الجيش الأشوري وأول ما قام به هو القضاء نهائيا على مملكة الشمال إسرائيل، وسبى أهلها إلى منطقة نامري في اتجاه بلاد فارس، وعين حاكما من طرفه

على المملكة[41]، كما حدث في عهده العديد من الاضـطرابات بمساعدة العيلاميين والمصريين الذين تحالفوا مع حكام اورارتو ضد الأشوريين الذين قطعوا طرق التجارة عن عيلام نتيجة دخولهم إلى إيران، بينما حرمت مصر من فينيقيا، واستطاع بذلك "سرجون الثاني" أن يربط كل أطراف الإمبراطورية بشبكة طرق من أكد حتى عيلام ثم الخليج الفارسي وشبكة أخرى من أشور مرورا بجبال طوروس وفينيقيا حتى البحر المتوسط[42].

قاد "سرجون الثاني" حملة ضد العيلاميين انتصر فيها عليهم، بينما تذكر الوثائق البابلية انه خسرها، كما قام بفرض الجزية على الميديين وهزم اورارتو واستولى على أقدس مدنها والتي تسمى مصاصير، وفي الجبهة السورية أُعلِن العصيان في كل من حماة وغزة بمساعدة جيش مصر، وقد تمكن "سرجون الثاني" من القضاء عليه، حتى انه سلخ جلد ملك غزة بينما هرب ملك مصر ووقع بعدها عصيان آخر في فلسطين بقيادة ملك اشدود وبمساعدة ملك مصر كذلك، وكان النصر حليف الأشوريين وبحلول عام 710 ق.م أصبحت معظم أقاليم سورية وكذلك قبرص تابعة لأشور عدا يهوذا، كما وجه "سرجون الثاني" حملة ضد بابل دانت على إثرها كل المنطقة لأشور، وارسلت كل الممالك الهدايا "لسرجون الثاني" طلبا للصداقة وأصبحت بذلك أشور اقوى مما كانت عليه[43]، كما قام بتحويل العاصمة من نينوى إلى دور شروكين التي لم يكتمل بناؤها بسبب وفاة "سرجون الثاني"، وخلفه سنحاريب (705-681 ق.م) الذي واجه بابل من جهة وسورية وفلسطين من جهة أخرى؛ حيث تمكن من القضاء على حركات التمرد والتي تجددت فيما بعد بمساندة العيلاميين في بابل وسوريا وفلسطين بمساعدة مصر في اواخر عهده، وقام سنحاريب بتخريب بابل سنة 689 ق.م[44]، ليحاصر بعدها أورشليم، لكن وباءً حال دون سقوطها ضف إلى ذلك نبأ وقوع اضطرابات في العاصمة حيث لقي حتفه على يد احد أبنائه الذي كان يطمع في تولي العرش من بعده.

4. الوضعية السياسية لمملكة يهوذا قبل حصار سنحاريب:

لاحظ ملوك يهوذا سقوط مملكة الشمال إسرائيل والذي اعتبروه عقابا من يهوه، ولم يعرفوا أن ما حدث كان نتيجة التحالف مع المصريين، كما أن التواجد المصري في كنعان كان منذ عهد الهكسوس (1680-1580 ق.م)؛ حيث امتدت امبراطوريتهم إلى غاية سورية وتشكلت الخارطة السياسية لكنعان مباشرة بعد خروج الهكسوس ومطاردتهم خلال حكم الأسرة السابعة عشر[45]، وتشير رسائل العمارنة أثناء غزو قبائل الخابيرو لكنعان إلى المنازعات التي كانت تحدث بين المدن والمقاطعات للانفصال عن مصر، وكانت قادش العدو الأكبر للتواجد المصري؛ فقد تحالفت مع الحثيين، وبمجيء عبد خيبا عادت مصالح مصر للمنطقة بفضل مجهوداته، فوسعت مصر سلطتها إلى غاية مجدو وعسقلان ولخيش، وكانت آخر الحملات التأديبية التي شنتها مصر على المدن الكنعانية تلك التي قادها كل من "سيتي الأول" "ورمسيس الأول" اين تواجها مع الحثيين حوالي 1290 ق.م وأعلن "رمسيس الثاني" بعدها فرض النظام على المدن الكنعانية[46].

حصار أورشليم:

يرجع العهد القديم سبب الحصار إلى سبب ديني؛ حيث نجد أن اسفار التوراة الملوك الأول والثاني وأخبار الأيام الثاني تسرد الصراع القائم بين المملكتين الشمالية والجنوبية وكيف حاد بعض ملوكهما عن عبادة يهوه، بينما تذكر المأثورات الآشورية أحداثا كثيرة بين المملكتين والأشوريين أهمها تدمير مملكة الشمال وحصار أورشليم، فقد توجه سنحاريب إلى سورية لضرب المدن التي تمردت عليه حتى وصل إلى يهوذا وخرب كل مدنها البالغ عددها اثنان وأربعون مدينة واستسلم له حوالي مائتي ألف من سكان المملكة[47]، ومن بين هذه المدن عقرون[48] وغزة، ولم يبق أمامه إلا أسوار أورشليم فضرب عليها حصارا سنة 701 ق.م، ويقول "سنحاريب" في احد حولياته: أنه نجح في اسر عدد من المصريين، ثم أرسل قائد جيشه إلى أورشليم ليدعوا حزقيا إلى الاستسلام، ما اضطر حزقيا إلى دفع الجزية نتيجة تأخر النجدة المصرية مضاعفة إلى نينوى[49].

أما هيرودوت فقد أورد قصة أخرى مشابهة تقريبا لما جاء في سفر الملوك الثاني وكان مصدره كالعادة الكهنة الذين أشاروا أن فرعون مصر هو تنوت أمون وليس سباخو لأن هذا الأخير كان قد تنحى وأفراد سلالته عن الحكم، وحكم بعد "تنوت امون" الكاهن "سيتوس"، الذي عاصر توافد "سنحاريب" فطلب من الجيش القيام بواجبه لكن قادة الجيش رفضوا لان "سيتوس" كان قد نزع لهم الكثير من الامتيازات خاصة الإقطاع، فدخل الملك إلى المعبد ووقف أمام إلهه وطلب منه أن يحميه فنام ورأى حلما أن الإله يشير عليه أن يتقدم بجيش من العامة أمام "سنحاريب"، ويعسكر أمام بيلوز التي هي المنفذ الوحيد للدخول إلى مصر، وأثناء حصار سنحاريب خرجت من مصر جيوش من الجرذان قضمت الاقواس والسهام وأفسدت أحزمة الدروع، وفي اليوم الموالي أصبحت جيوش سنحاريب دون أدوات للحرب فهربوا بعد أن مات منهم الكثيرون(50).

والحقيقة أن مصير يهوذا كان لا محال منه، نفسه نفس مصير مملكة الشمال، ويذكر فلافيوس انه عندما عاد سنحاريب من مصر نقص عدد جيشه بـ 185 الف جندي بسبب طاعون أرسله الله ليلة الحصار الأولى فتراجع إلى نينوى ليحافظ على ما تبقى من الجند(51). (اذا كان هذا الرقم صحيحاً كم كان التعداد الحقيقي لجيش سنحاريب ، ويبدو جليا أن هذا العدد مستحيل وغير منطقي، لأن يهوذا لم تكن بحاجة إلى كل هذا العدد لمحاصرتها لأنها كانت رقعة جغرافية صغيرة مقارنة بمصر).

ليضيف "بهذه الطريقة تخلص من تبعية أشور وهو يدين بهذه الحرية إلى الله إذ طرد من أمامه أعداءه الذين فروا من الطاعون وخوفا من أن يلاقوا –سنحاريب وقادته– نفس المصير على أسوار أورشليم، ومع مرور بعض الوقت سقط مريضا ولم يتمكن الأطباء والخدم من علاجه"(52)، وحسب رسائل تل العمارنة فإن سنحاريب خرج من نينوى سنة 701 ق.م ولم يكن في نيته إخضاع المدن الفينيقية، فقد اكتفى فقط بصيدون، أما باقي الدول مثل ارواد وصور وبيبلوس فقد فرض عليها إتاوة وتوجه إلى الجنوب واخضع موآب وآدوم، وبعد ذلك تراجع إلى عقرون التي توجهت إليها القوات المصرية لإنقاذها وهزموا هناك، ولم يبق أمام سنحاريب سوى الملك حزقيا في لخيش،

وقد ذكرت حوليات سنحاريب كذلك انه لم يتوجه بكامل جيشه إلى أورشليم، فقد حاصر أولا مدينة لخيش واخضع مدنا تابعة ليهوذا بواسطة فرق صغيرة اعتمدت الحرب السريعة أما العاصمة فقد حاصرها وقطع الطريق على كل من يدخل إليها ويخرج منها[53].

أرسل حزقيا إلى سنحاريب في لخيش طالبا منه العفو، فاستجاب له بشروط قاسية حيث أصبح يرسل له الجزية ضعف ما كان يرسل من قبل، وزاده بناته وموسيقيه ونساء البلاط[54]، وكان سنحاريب يرى ان بإمكانه احتلال أورشليم فقام بإرسال قائد جيشه ربشاق إلى حزقيا يطلب منه الاستسلام، وانسحب ربشاق بأمر سنحاريب نتيجة قدوم القوات المصرية ليتواجها معها شمال فينيقيا بقيادة ترحكا، ونتيجة الطاعون لم يعد لمواجهة أورشليم ضف إلى ذلك ثورة بابل سنة سبعمائة قبل الميلاد والتي أثارها الكلديون[55].

إن حصار سنحاريب لأورشليم كان سنة 701 ق.م بينما ترحكا حكم مصر سنة 689 ق.م؛ حيث أن سنحاريب دخل معه في صراع بعد أن احتل لخيش وتعرض جيشه للطاعون في هذه الحملة لا حملة 701 ق.م، بينما يذكر العهد القديم أن ترحكا اقترن حكمه بحكم الملك حزقيا وهذا غير صحيح لأن ملك أورشليم سنة 689 ق.م هو منسى وليس حزقيا.

جعلت التوراة من ترحكا ملك علما انه ابن أخ سباخو الذي اسند له قيادة الجيش، وهذا ما أكده هيرودوت لأن الطاعون الذي حدث لجيش سنحاريب سنة 689 ق.م كان أثناء مواجهة مصر، وعليه فانسحاب سنحاريب سنة 701 ق.م كان بسبب ثورة بابل، بالإضافة إلى الحملة المرتقبة ضد مصر سنة 690 ق.م عندما دمر لخيش وحاول الوصول إلى مصر.

بعد وفاة سنحاريب والذي تذكر التوراة عن وفاته "[37]وَفِيمَا هُوَ سَاجِدٌ فِي بَيْتِ نِسْرُوخَ إِلَهِهِ ضَرَبَهُ أَدْرَمَّلَكُ وَشَرَآصَرُ ابْنَاهُ بِالسَّيْفِ، وَنَجَوَا إِلَى أَرْضِ أَرَارَاطَ. وَمَلَكَ أَسَرْحَدُّونُ ابْنُهُ عِوَضاً عَنْهُ"[56]، بدأ التنافس بين الإخوة حول العرش وقد تمكن أصغرهم اسرحدون (681-669 ق.م) الذين كان في جبال أرمينية من القضاء على الفتنة وتولي الحكم، وأول ما قام به هذا الملك هو بناء مدينة

بابل، ما اكسبه ود البابليين كما اتجه نحو مصر نتيجة تدخلاتها في بلاد الشام(57)، وفي سنة 671 ق.م وصل إلى شرق الدلتا ثم دخل العاصمة ممفيس أيام طهراقة الحبشي، وبعد سنتين تم استعادتها من قبل الملك الذي كان قد فر إلى الجنوب، وأعاد "اسرحدون" حملة أخرى على مصر لكنه توفي في حران(58).

خلفه على العرش بعد وفاته "أشور بانيبال"(668-627 ق.م) الذي اخمد الفتنة في مصر، وأقام بها حاميات وفرض الجزية عليها ونصب "بسماتيك" مكان "طهراقة"(59)، وكان من نتائج هذه الحملة أن مصر أحست بقوة الأشوريين، فكفت عن أطماعها في سورية وفلسطين، ولو بشكل مؤقت كما أن مصر أظهرت فيما بعد نوع من الصداقة للأشوريين فقد ساعدتهم خلال حربهم ضد الميديين(60)، وفي حوالي 655 ق.م أعلن "بسماتيك الأول" الاستقلال في دلتا النيل وتحالف مع ملك الميديين وطرد الحاميات الأشورية إلى فلسطين مما ادى "بأشور بانيبال" إلى التخلي عن مصر نتيجة انشغاله بالحرب ضد العيلاميين الذين ساعدوا اخاه "شمش-شوم-اوكن" حاكم بابل في ثورته، وكان الانتصار فيها "لأشور بانيبال"(61).

لم تستطع الإمبراطورية الأشورية الحفاظ على قوتها وارثها الحضاري فقد أرهقتها الحروب، ضف إلى ذلك تولي حكام ضعاف زمام الأمور بعد "أشور بانيبال"، فانفصلت عنها عدة مقاطعات وظهر الكلديون كقوة جديدة في المنطقة بالإضافة إلى الميديين، ونتيجة تحالف القوتين سقطت نينوى سنة 612 ق.م ليقتسم بعد ذلك الميديون والبابليون ممتلكات الإمبراطورية الأشورية، فاستولى الميديون على أجزائها الشمالية الشرقية، أما الكلديون فاستولوا على أجزائها الجنوبية(62).

الهوامش :

(1)-سبتينو موسكاتي، **الحضارات السامية القديمة**، تر: السيد يعقوب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1997، ص 38. انظر كذلك: نور الدين حاطوم وآخرون، **موجز تاريخ الحضارة**، ج1، مطبعة الكمال، مصر، 1965، ص212.

(2)- عبد الفتاح محمد وهيبة، **مصر والعالم القديم -جغرافية تاريخية-**، دار النهضة العربية، بيروت، 1972، ص 128.

(3)-سفر التكوين (10: 10-12).

(4)-السوباريون: اسم يطلق على موطن الأشوريين قبل بروزهم، وتذكر النصوص التاريخية أنهم كانوا يعيشون في شمال بابل في المناطق الجبلية شرقي دجلة في المنطقة الممتدة من دجلة إلى جبال زاجروس، وتجعل هذه النصوص مصطلح بلاد سوبارتو معادلا لبلاد أشور، أما الأشوريون فيعتبرونها بلاد أجنبية معادية، أما أصلهم فمن الأقوام الجبلية غير السامية. أنظر: طه باقرا **مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة -تاريخ العراق القديم-**، ط2، دار المعلمين العالمية، بغداد، 1955، ص 166-167.

(5)- نور الدين حاطوم وآخرون، المرجع السابقا ص213.

(6)- غطاس عبد الملك الخشبة، المرجع السابق، ص 58. انظر كذلك: تك (10: 22)

(7)- طه باقرا المرجع السابقا ص164.

(8)- عبد العزيز صالح، **مصر والعراق**، ج1، ط2، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، 1973، ص494.

(9)- حلمي محروس إسماعيل، **الشرق العربي القديم وحضارته**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997، ص 67.

(10)- عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 494.

(11 -)Léon Homo, **Histoire D'orient**, Arthéme Fayard, Paris, 1945, P 87.

(12)- طه باقر، المرجع السابق، ص 163.

(13)- احمد أمين سليم، **دراسات في تاريخ وحضارة العراق**، مكتبة بستان المعرفة، الإسكندرية، 2004، ص 147.

(14)- فاضل عبد الواحد علي وآخرون، **العراق في التاريخ**، دار الحرية، بغداد، 1983، ص 127.

(15 -)Paul Garelli, **Assyriologie**, PUF, Paris,1962, P 58 .

(16 -)Léon Homo: Op.Cit, P 87.

انظر كذلك: فرج بصمة جي، **كنوز المتحف العراقي**، وزارة الإعلام، بغداد، 1972، ص 48-49.

(17)-ميتاني: اسم سياسي لمملكة أنشأها الحوريون في النصف الثاني من الألف الثانية ق. م وقد غزا ملكهم المسمى "سوشنار" المعاصر للفرعون المصري تحوتمس الثالث بلاد أشور ووردت اسماؤهم في رسائل العمارنة. أنظر: طه باقر، المرجع السابقا ص 167.

(18)- عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 497. انظر كذلك: فاضل عبد الواحد علي وآخرون، المرجع السابق، ص 129.

(19)- عن الصراع بين الحيثيين والمصريين انظر: Georges Roux, **La Mésopotamie**, Ed: Seuil, Paris, 1995, PP 298-305.

(20)- احمد أمين سليم، المرجع السابق، ص 149.

(21)- حلمي محروس إسماعيل، المرجع السابق، ص 69. انظر كذلك: Paul Garelli, Op. Cit, P 84.

(22)-طه باقر، المرجع السابق، ص 176.

(23)- احمد امين سليم، المرجع السابق، ص 150.

(24) -(Paul Garelli, **Le Proche Orient Asiatique**, PUF, Paris, 1969, P 205.

(25-)De La Porte, **Les Civilisations Babylonienne et Assyrienne**, La Renaissance du livre, Paris, 1923, P 271.

(26)- طه باقر، المرجع السابق، ص 177.

(27)- الليمو: تنتسب هذه القوائم إلى حملة اللقب ليمو ويطلق على المسؤول الذي يترأس إقامة المراسيم الحكومية في مدينة أشور، وكان الملك والمسؤولين الكبار يتقلدون هذا المنصب بالتداول سنة لكل واحد، وكانت السنة تعرف رسميا باسم القائم بمهام الليمو حينها، وتضمنت قوائم الليمو أسماء المسؤولين وأحيانا بعض الحملات العسكرية التي وقعت، وقد ورد في إحدى القوائم خبر كسوف الشمس وحدده علماء الفلك بسنة 763 ق.م. انظر: احمد أمين سليم، المرجع السابق، ص 35.

(28)- عبد الحكيم الذنون، **الذاكرة الأولى- دراسة في التاريخ السياسي والحضاري القديم لبلاد الرافدين**- ط2، دار المعرفة، (د.م)، 1993، ص 113. انظر كذلك: طه باقر، المرجع السابق، ص 180.

(29)- حلمي محروس اسماعيل: المرجع السابق، ص 73-74.

(30) De La Porte, **Les Civilisations Babylonienne et Assyrienne**, La Renaissance du livre, Paris, 1923, PP 273-275.

(31) Contenau. G, **Les Civilisations du Proche-Orient**, PUF, Paris, 1948, P 115.

(32)- احمد امين سليم، المرجع السابق، ص 153 - 154.

(33)- حلمي إسماعيل محروس، المرجع السابق، ص ص 79-81. انظر كذلك: ويل ديورانت، **قصة الحضارة-نشأة الحضارة**- ج1، تر: زكي نجيب محمود، تق: محي الدين صابر، دار الجيل للطباعة والنشر،بيروت، 1981، ص 267.

(34)- طه باقر، المرجع السابق، ص 184.

(35)-حلمي إسماعيل محروس، المرجع السابق، ص 82.

(36)-احمد امين سليم، المرجع السابق، ص 156. انظر كذلك: طه باقر، المرجع السابق، ص 185-186.

(37) Paul Garelli, **Assyriologie**, PUF, Paris,1962, P 70.

(38)-حلمي إسماعيل محروس، المرجع السابق، ص 85-86.

(39)- وليم لنجر، **موسوعة التاريخ العام**، تر: محمد مصطفى زيادة، ج1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1968، ص 58.

(40)- حلمي محروس اسماعيل، المرجع السابق، ص ص 86-88. انظر كذلك: De La Porte, Op. Cit, P 279.

(41)- لوبون غوستاف، **اليهود في العالم القديم**، تر: عادل زعيتر، مطبعة حجازي، القاهرة، 1950، ص 40.

(42-) Alexandre Moret, Histoire Ancienne, T1, PUF, France, 1936, P 388.

(43)- حلمي محروس اسماعيل، المرجع السابق، ص ص 89-92. انظر كذلك: Contenau,G, Op. Cit, P118.

(44)- ول ديورانت، المرجع السابق، ص 268.

(45)- وليم لنجر، المرجع السابق، ص 48.

(46-) Buysschaert. G, **Israël et le Judaïsme dans l'ancien orient**, trad par: Vander Waeter, ed: Beyaert, Paris, 1953, , P 80-81.

(47 -) Eugene Cavaignac, **Histoire Générale de L'Antiquité**, T2, Les Belles Lettres, Paris, 1946, P 251.

(48)- عقرون: اسم سامي معناه "استئصال"، وهي اقصى مدن الفلسطينيين الخمس باتجاه الشمال يش (13: 3) كانت في البدء من نصيب يهوذا، ثم اعطيت لدان يش (19: 43) إلا أن حدود يهوذا كانت تمر عبرها، وقد استرجعها الفلسطينيون بعد مدة. ولما خشي أهل اشدود جتّ من وجود تابوت العهد عندهم، شاركهم اهل عقرون في ذلك 1 صم (5: 10، 11) غير أن صموئيل استعادها 1 صم (7: 14). ولم تدم في حوزة بني إسرائيل كثيراً. فقد استردها الفلسطينيون. وإليها هربوا بعد مقتل جليات الجبار 1 صم (17: 52). أنظر:
http://st-takla.org/Full-Free-Coptic-Books/FreeCopticBooks-002-Holy-Arabic-Bible-Dictionary/18_EN/EN_176.html

(49)- صالح عبد العزيز، المرجع السابق، ص 225.

(50)-(Hérodote, Histoire, L II, Trad par: Legrand, Les Belles Lettre, Paris, 1932, 141.

(51)-(Josèphe Flavius, Loc. Cit, L 10, II, P 307.

(52 -)(Ibid, L 10, III, P 307-308.

(53-)(Adolf Lods, Les Prophètes D'Israël et les debuts de Judaisme, Ed: Albin Michel, Paris, 1935, p35-36.

(54)- عبد العزيز صالح، المرجع السابق، ص 525.

(55)- عبد الحكيم الذنون، المرجع السابق، ص 118.

(56)-سفر الملوك 2 (19: 37).

(57)- عبد الحكيم الذنون، المرجع السابق، ص 119.

(58)- عبد الحميد زايد، **الشرق الخالد**، دار النهضة العربية، القاهرة، 1968، ص 97.

(59)-حلمي اسماعيل محروس، المرجع السابق، ص ص 93.

(60)- طه باقر، المرجع السابق، ص 197.

(61)- ابراهيم رزقانة وآخرون، **حضارة مصر والشرق القديم**، دار مصر للطباعة، مصر، (دأت)، ص 337.

(62)- حلمي اسماعيل محروس، المرجع السابق، ص 96.